



## رسائل الثورة السورية المباركة (16): الأنظار تتجه إلى الجيش

وصلنا أخيراً إلى أهم نقطة في المسألة كلها: الجيش. في مصر وتونس حسم الجيشُ الصراعَ لصالح الشعب، وفي اليمن كان له في الحسم دور كبير، بل ربما الدور الأكبر. فماذا عن سوريا؟

أنا أقرأ وأنت تقرؤون طول الوقت دراسات وتحليلات تحاول فهم الأزمة والتنبؤ بمصيرها، ولعلكم لاحظتم إجماعاً أو شبه إجماع على أن الجيش في سوريا ليس كالجيش في تونس ومصر، لأنه جيش طائفي كما يقولون، ولذلك صدر الحكم: سبقي الجيش مع النظام إلى آخر الطريق وسوف يكون قوةً على الشعب لا معه. وأنا أقول لهؤلاء الدارسين والمحليين: إنكم مخطئون.

لنبدأ الحكاية من أولها. يجب أن نعرف ابتداءً أن حافظ الأسد لم يثق بالجيش قط، ربما لسبب بسيط يسهل فهمه، فهو نفسه جاء من الجيش بانقلاب، وقبله وصل رؤساءً وذهب رؤساءً بانقلابات من داخل الجيش، لذلك ما كان ليُلام وهو ينظر إلى الجيش على أنه "مخزن افتراضي" لضباط انقلابيين! التحسب والخوف من الجيش يقى هاجساً يقلق الأسد الأب طوال فترة حكمه، وهذا السبب هو الذي جعله يعتمد في أمنه وبقائه على أجهزة ومؤسسات أمنية غير الجيش، وهي (مرتبةً حسب أهميتها):

(1) **الأجهزة الأمنية السرية:** المخابرات العامة (أمن الدولة)، والمخابرات العسكرية، وبالتأكيد المخابرات الجوية التي حظيت بالأفضلية والقوة لأنها كانت من أهم أدوات حافظ الأسد في الانفراد بالحكم والقضاء على زملائه، فقد أنشأها لتكون "مخابرته الخاصة" حينما كان قائداً للقوات الجوية والدفاع الجوي، ومنذ ذلك الحين صارت المهمة الأولى والكبرى لهذا الجهاز هي حماية الأسد شخصياً، وبعد ذلك أسرته والنظام -ولهذا الإيجاز تفصيل ليس هنا محله-. وربما بالطريقة ذاتها اتسع نفوذ المخابرات العسكرية بعدها صار الأسد وزيراً للدفاع. وعلى أية حال، وبغضّ النظر عن ترتيب أجهزة المخابرات في القوة، فإن المهم والثابت أنها هي عصب القوة الرئيسي الذي يعتمد عليه النظام.

(2) **بعد الأجهزة الأمنية السرية تأتي في الأهمية تشكيلاتٌ عسكرية خاصة أنشئت وطُورت لخدمة هدفٍ واحدٍ، هو أمن النظام والرئيس وليس أمن الوطن.** أولى هذه التشكيلات تكويناً هي "سرايا الدفاع" التي وُضعت في العاصمة -وما يزال أهل دمشق يذكرون معسكرات السرايا في أطراف دمشق والمعاناة الطويلة من إجرامهم وتعديهم على المدنيين الآمنين-. وبما أن المهمة الأصلية لسرايا الدفاع كانت الدفاع عن الرئيس والنظام فإن حافظ الأسد لم يجاذب بتسليم قيادتها إلى أي طرف

خارجي، بل أبقاها بيد أخيه الأمين رفعت. لكن رفعت لم يكن أميناً تماماً وحاول الانقلاب على أخيه لما غاب في غيبوته المشهورة عام 1983م، وحين أفاق حافظ الأسد من الغيبة قرر أن يعيد ترتيب الأوراق، فأقصى رفعت وحُلّت سرايا الدفاع ليعاد تشكيلها في فرقة خاصة سميت "الوحدة 569"؟، ثم صار اسمها لاحقاً "الفرقة المدرعة الرابعة" وألحقت بالجيش رسمياً، لكنها بقيت عملياً خارج التشكيلات النظامية للجيش واعتبرت مسؤولياتها ذات طبيعة خاصة. سرايا الدفاع نفذت بقيادة رفعت الأسد عدداً كبيراً من "المهام القذرة" في سوريا ولبنان والأردن، وهي مسؤولة بشكل كامل عن مجرزة سجن تدمر الشهيرة وبشكل رئيسي عن مجرزة حماة الكبرى.

**ثانية التشكيلات العسكرية المسؤولة عن أمن النظام هي فرقة الحرس الجمهوري التي صارت -منذ تأسيسها عام 1976م-** خطأ الدفاع الأساسي عن الأسرة الحاكمة وعن النظام، وقد حرص الرئيس السابق – وهو العسكري الذي جاء إلى الحكم عن طريق الجيش ويقي دائمًا يخشي أن يذهب عن طريقه أيضاً كما قلنا من قبل –، حرص على أن تحفظ فرقة الحرس الجمهوري بتفوق نوعي على سائر فرق الجيش السوري من حيث التسليح والتدريب. تتمركز هذه الفرقة حول مداخل دمشق الأربع، وهي الوحدة العسكرية الوحيدة التي يُسمح لها بدخول العاصمة، ويبلغ عدد أفرادها نحو عشرة آلاف موزعين على أربعة ألوية، ثلاثة ألوية مدرعة ولواء واحد مؤلل.

ويتبغى أن أشير هنا إلى أن كثيراً من المقالات المرتجلة تخلط بين الفرقة الرابعة وفرقة الحرس الجمهوري وتظن أنها اسماً لمعنى واحد، ولعل السبب في هذا الخلط هو أن كلا الفرقتين يقودهما ماهر الأسد، وهو أيضاً قائد الحرس الرئاسي، أي أن ماهر الأسد هو المسؤول الأول عن قيادة أمن النظام في الوقت الراهن.

(3) **في المقام الثالث -من حيث أهمية أمن النظام- تأتي القوات شبه العسكرية.** وهي تضم في الدول المدنية الشرطة –الدرك–، والحرس الوطني وحرس الحدود وأجهزة الدفاع المدني، وفي غيرها من الدول البوليسية تشمل مليشيات حكومية أو قوات بوليسية ذات مهام قمعية –كالأمن المركزي في مصر–. الشرطة جزء من القوات شبه النظامية بمقتضى تعريفها، لكنّ لن نتهم بجهاز الشرطة السوري لأنّه ضعيف ومحدود العدد، فهو لا يتجاوز ثمانية آلاف فرد وليس له قيمة كبيرة في أمن النظام. الجسم الأكبر من القوات شبه العسكرية يتكون من مليشيات حزب البعث التي يسمونها "الجيش الشعبي"، ويقدّر المعهد العالمي للدراسات الإستراتيجية عددها بمئة ألف، وتتكون من "الرفاق" البعثيين الذين يخضعون لتدريب عسكري قصير بشكل متكرر. وهي ليست تشكيلات نظامية ولكنها تُجمع في الأزمات كما تُجمع قوات الاحتياط العسكرية، ويُفترض أنها ذات ولاء كبير للنظام، وقد استفاد منها حافظ الأسد في الأزمة الخطيرة التي نشبّت بينه وبين أخيه رفعت عام 1984م. وتشبهها من حيث الولاء الشديد للنظام جماعات "شبيبة الثورة"، وهي منظمة شبابية حزبية يسيطر أعضاؤها على مفاصل الحياة السياسية الشبابية في البلاد، كاتحادات الطلبة في الجامعات والتجمعات الشبابية في جميع محافظات سوريا. لا نستطيع الحصول على معلومات موثقة، ولكن يمكننا التكهن إلى درجة تقارب اليقين بأن هاتين الجماعتين قد شاركتا في قمع المتظاهرين في الانتفاضة الشعبية بقوة، ونستطيع على الأقل أن نجزم –بالاطلاع على اللقطات المصوّرة– أن الشبيبة قامت بهذا الدور السيئ في جامعتي حلب ودمشق عندما ظهر فيها بعض الطلاب.

ويمكن أن نَعُدَ مع القوات شبه العسكرية في سوريا مجموعات مسلحةً غريبة لا تخضع لسيطرة الدولة المركزية، بل ترتبط بأشخاص من الأسرة الحاكمة، وهي مليشيات التي يسميها الناس "الشبيحة". وقد كانت في أول الأمر جماعات مسلحة محدودة تتكمّب من التهريب والمتاجرة بالممنوعات وابتزاز الأهالي المدنيين بالإتاوات والضرائب، وهي تعيش خارج القانون لأنّها عصابات تابعة لأفراد من عائلة الأسد، أشهرها عصابة محمد الأسد المشهور بلقب "شيخ الجبل". نظراً إلى ظروف الولادة التاريخية فقد تركز وجود عصابات الشبيحة قريباً من جبال العلوين ومدن الساحل، اللاذقية وجبلة وبياناس وطرطوس، ولا يعرف أحداً عدّ مجرمي هذه العصابات بدقة، لكنهم قد يبلغون عشرة آلاف حسب بعض التقديرات. هذه

العصابات لا تخدم الدولة في الظروف العادية، بل تعمل لمصالحها الخاصة ومصالح زعمائها الأسديين الذين يرتبطون - نظامياً وحسب توجيهات رئاسية. ب Maher الأسد شخصياً، واليوم بات من المؤكد أن النظام الذي يعيش في حالة من اليأس والتخبّط قد دفع بهم إلى المعركة، ولا شك أن كثيراً من جرائم القوات القمعية في مدن الساحل تحديداً يمكن نسبتها إلى هذه العصابات.

\*\*\*

أخيراً: نصل إلى الجيش، واحتلمني لأنني سوف أتحدث عنه بشيء من التفصيل. الذين يدرسون الجيش السوري يدرسونه كمياً، ومن هنا يأتي الخطأ الأكبر في وصفه بأنه واحد من أعتى الجيوش وأقواها، وأنه يحتل المرتبة الرابعة عشرة في العالم من حيث الحجم والقوة... وهذا محنٌ هراء.

بالتأكيد سوف ينبه أي مواطن عادي وهو يقرأ وصفاً لجيشه العظيم فيجد أنه يملك خمسة آلاف دبابة وأربعين طائرة مقاتلة، ولكن هذا يشبه قوله إبني أملك أربعة حواسيب -كمبيوترات-. ببساطة لأنني لم أرم في حاوية القمامنة الحواسيب القديمة التي امتلكتها في أوقات سابقة ولم تعد لها أي قيمة اليوم، حاسوب معالج 486 وبنطيوم 1 وبنطيوم 2! ذلك المواطن المنبه سوف يُصاب بخيبة أمل عندما يعلم أن ثلاثة آلاف من دبابات الجيش السوري هي من نوع ت-54 وت-55 التي صنعتها روسيا بعد الحرب العالمية الثانية بقليل (ت-54 من إنتاج عام 1947 وت-55 من إنتاج 1958)، والألاف الباقية من ت-72 الذي بدأ صنعه في روسيا قبل واحد وأربعين عاماً، أي في السنة التي سقطت فيها سوريا تحت الاحتلال الأسدية المباشرة. (ملاحظة على الهاشم: أسهل طريقة للتمييز بين النوعين هي عدّ عجلات الدبابة، فهي خمس في النموذجين الأقدم - ت-54 وت-55 - وست في النموذج ت-72، وقد لاحظت من مراقبة المقاطع المصورة أن أكثر الدبابات التي دخلت إلى درعا هي من الأنوع القديمة، مما قد يدل على أن القوة الرئيسية في اجتياح حوران وحصار درعا ليست الفرقة الرابعة التي لا تعتمد أبداً على هذا النوع القديم من الدبابات، بل لعلها الفرقة الخامسة كما يشاء. وهذا أمر له دلالته، فهو يعني أن الفرقة الرابعة عاجزة عن تركيز قوتها في حوران أو في أي منطقة محددة، لذلك تشتت أولويتها وكتائبها بين مناطق سوريا المختلفة والمتباعدة كما قرأتم في رسالتى الرابعة عشرة).

إن أكثر ما يملكه الجيش السوري من سلاح لا نفع فيه في حروب القرن الحادي والعشرين، وإنما هو تكديس لخردة قديمة تطير بأول نفحة قوية من عدو حقيقي. ولعل المخضرمين من القراء ما زالوا يذكرون المعركة الجوية التي اشتبت فيها الطائرات السورية والإسرائيلية في سماء لبنان في يوم من أيام سنة 1982 م، فسقطت فيها أكثر من ثمانين طائرة سورية مقابل صفر، أي بلا أي خسارة في الجانب الإسرائيلي! لو أن فريق كرة سلة خسر (80-صفر) لقامت قيادة الصحافة والجماهير وعزل المدرب وحوسب وزير الرياضة ووضع اللاعبون في السجن، ولكن أحداً في سوريا لم يفتح فمه بكلمة بعد تلك النكبة، لا الرئيس اعتذر ولا وزير الدفاع استقال ولا قائد سلاح الطيران قدم للمحاكمة، الشيء الوحيد الذي استفناه هو أن القيادة السورية تعلمت أن لا تتسرع بإرسال طائراتها إلى السماء، بل أن تتحفظ بحق الرد إلى الوقت المناسب! ومنذ ذلك اليوم ما زالت تتدسس في ملفات الصراع "الوهبي" الكبير بين إسرائيل وأهم دولة مقاومة وممانعة في العالم، ما زالت تتدسس عشرات الاختراقات والاعتداءات المنهينة التي تترى فيها القيادة وتدرس أنساب الأوقات للرد، أما عشرون متظاهراً في الجامع الأموي في الشام فلم تجد السلطات حاجة للتريث وانتظار الفرصة المناسبة، بل بطحتم في أرض الجامع وجرجرتهم من أرجلهم في صحنه الخارجي بلا تريث ولا انتظار... فهنئاً للشعب السوري بدولة الممانعة والصمود! إذن؛ فإن السلاح الجوي السوري العظيم يستطيع أن يخوض خمس معارك مع الطيران الإسرائيلي قبل أن يخسر طائراته كلها - بمعدل 80 طائرة في اليوم -، وربما استطاع سلاح المدرعات الصمود أسبوعاً قبل انهياره الكامل! هذا من حيث السلاح، وليس الطامة الكبرى في السلاح، بل في العسكر. فلا قيمة لسلاح بغير جنود، وجند الجيش السوري أبعد ما

يكونون عن القدرة على خوض حرب، **فهم يعانون من عدد كبير من السلبيات التي جعلت جيشنا من أسوأ جيوش العالم**

منها:

(أ) الفساد، فما تعرفونه من فساد في الحياة السياسية وال العامة في سوريا يوجد مثله أو أكثر منه في الجيش.

(ب) المحسوبية، فأي مجند يملك واسطة يمكن أن يُعفى من الخدمة العسكرية الحقيقة وينقل إلى موقع ترفيهي في العاصمة أو المدن الرئيسية ليُمضى فيها مدة خدمته الإلزامية.

(ج) الاستغلال والاستعباد، بدلًا من أن يصبح العسكريون جنوداً مقاتلين في خدمة الوطن صاروا أرقاء في خدمة السادة الضباط، بل صاروا - حرفيًا - خداماً وسائلن للضباط وزوجات الضباط وأبناء الضباط، يخدمون في بيوتهم ويوصلون أبناءهم المدللين وزوجاتهم المرفهات بسيارات الجيش الرسمية!

(د) والأسوأ من ذلك كله هو الطبقية الطائفية التي ارتبطت على الدوام بالاستعلاء والإذراء والتحيز، فأي رقيب من طائفة الرئيس يمكن أن يركل أي نقيب من الطوائف الأخرى على مؤخرته بالبساطار، ثم لا يستطيع الضابط الكبير سوى أن يشكّر ربه لأن الركالة جاءت على القفا وليس على الرأس!

هذا كله لا تنشره المجالات العسكرية ولا تتحدث عنه التقارير، لذلك لا نستطيع أن نلوم من يغلب عليه التفاؤل والأمل فيظن أن القيادة السورية نجحت في بناء جيش عربي لتحرير الأراضي السليبة! هذا كله يعرفه فقط السوريون الذين عاشوا في سوريا والذين خدموا في جيشهما، فاكتشفوا أنه ليس سوى حظيرة أخرى من الحظائر التي تملئ بها مزرعة الحاكم بأمر الله، رئيس البلاد الذي يملك البلاد ومن يعيش فيها من عبيد وعباد!

الخلاصة وباختصار: الجيش يعاني - في مجمله - من المشكلات والآفات التي يعاني منها المجتمع السوري كله، بل إن هذا من ذاك، مما دامت العصابة واحدة في الحالتين فلن يكون السلوك مختلفاً. ولكن شرفاء يحملون عبئاً مضاعفاً لأنهم: (أ) ينفردون بالمهانة التي تأتي من عدوan الرتب الطائفية الدنيا على الرتب الوطنية العليا.

(ب) يعانون من الكآبة والحسنة والمذلة وهم يرون جيش سوريا الذي كان ينبغي أن يكون من أقوى الجيوش العربية وأشدّها على العدو، يرونها أضعفها وأذلّها في مواجهته والرضاخ لتهديداته والسكوت عن اعتداءاته على البلاد.

(ج) بالإضافة إلى الحرمان والظلم المادي، لأن العبيد - الذين يُسمون في الجيش مجندين - لا يحصلون على شيء في حين يحصل ضباطهم على كل شيء، بل حتى الضباط الشرفاء من غير الطائفة الحاكمة يعانون من الظلم والحرمان المادي مقارنة بضباط الطائفة.

مما سبق نصل إلى الحقيقة الأولى من ثلاث حقائق مهمة تدور هذه الدراسة عليها: الجيش السوري ليس أقل معاناة من الشعب السوري، وكل الأساليب التي دفعت الشعب إلى الانتفاضة موجودة مثلها، أو أكثر منها، بين عناصر الجيش.

\*\*\*

منذ سنوات طويلة تراجع التطوع في الجيش وصارت كتلته الكبرى مكونة من مجندى الخدمة العسكرية الإلزامية. في الماضي غفل أهل السنة عن أهمية الجيش وأعرضوا عن التطوع فيه، في حين أقبلت عليه الطوائف الأخرى، ولا سيما النصيري والدروز الذين كانت الكليات العسكرية هدفاً أسمى لهم، والذين قادوا من بعد أكثر الانقلابات المشؤومة التي عرفتها البلاد. بعد انقلاب 23 شباط 1966م، طهر حافظ الأسد الجيش من ضباط الطوائف الأخرى، السنة والإسماعيلية، وأيضاً الدروز الذين استهدفهم بشكل خاص لأن المنافسة على السيطرة على الحزب والجيش كانت قد تركت تحديداً بين النصيري والدروز منذ انقلاب البعث في آذار 1963م: أعدم حافظ الأسد صديقه الرائد سليم حاطوم عام 1967م، وسجن اللواء فهد الشاعر وعذبه تعذيباً شديداً أدى إلى اختلاله عقلياً، كما حكم بالإعدام على عشرات ضباط الجيش من الدروز وسرح منهم المئات أو نقلهم إلى مراكز هامشية. بالنتيجة صارت أكثر الرتب الوسطى والعليا حكراً على العلوبيين، وهو

شكلوا جزءاً مهماً من القوة النظامية الدائمة (الطوعية) من غير المجندين الإلزاميين.

لكن الواقع القديم تغير بحدة في العقدين الأخيرين، فقد استرخى النظام بعدما ثبت نفسه وسحق معارضيه –في انتفاضة بداية الثمانينيات–، وراح أبناء الطائفة الجدد يحصدون ثمار كفاح الجيل المؤسس، ومع تفتح أبواب لا حصر لها تتيح لهم الكسب السهل –بالنهب والسرقة والابتزاز والمشاركات الوهمية وغيرها من الوسائل القدرة– بدؤوا ينفضون عن المؤسسة العسكرية التي كانوا يتواصون من قبل بالإقبال عليها، وتناقصت بصورة حادة أعداد خريجي الكليات العسكرية منهم وصولاً إلى مستويات حرجة أجبرت القيادات العليا على التساهل والرضا بتعيين آلاف الضباط السنة في قيادات وسطى، بل وفي قيادات عليا في كثير من الأحيان. وكما أشار الدكتور بشير زين العابدين في ورقته القيمة التي نشرها بعنوان "النظام السوري في مواجهة السقوط"، فإن نسبة السنة ارتفعت في خمس سنوات من 35 بالمئة إلى 65 بالمئة بين قادة الكتائب، ومن 38 بالمئة إلى 54 بالمئة في التشكيلات القيادية التابعة للقيادة العامة، أي أنها تضاعفت بنسبة مئة بالمئة في المستويات الوسطى وبنسبة خمسين بالمئة في المستويات العليا.

وبالنتيجة فقد صار بإمكاننا أن نقول إن جيش سوريا (الذي يعتمد أساساً على الخدمة الإلزامية) لا بد أن يمثل الشعب السوري تمثيلاً متجانساً بالضرورة. فإذا كان السنة يمثلون أربعة أخماس المجتمع السوري فهم يمثلون إذن أربعة أخماس الجيش، والعشر من أفراد المجتمع من العلوبيين فالعشر من عناصر الجيش منهم كذلك، والعشر الأخير في المجتمع وفي الجيش من الطوائف الأخرى. وكما تتشابه الكتلتان البشريتان –الشعب والجيش– بالتوزيع الطائفي فإنهما تتشابهان في توزيع المراكز القيادية أيضاً، فكما أن المراكز العليا في الدولة محصورة بيد أبناء الطائفة وأعضاء الحزب فكذلك هي في المؤسسة العسكرية؛ وهنا نصل إلى ثانية الحقائق المهمة في هذه الرسالة:

إن الجيش السوري والمجتمع السوري متشابهان إلى درجة التماثل من حيث التركيب الطائفي، بل والتركيب العرقي أيضاً، من عرب وكرد وآشور وكلدان، ومسلمين وموسيحيين وعلويين وإسماعيليين ودروز.

\* \* \*

والآن إلى القضية الثالثة والأخيرة التي يتشبه فيها الجسمان: المجتمع والجيش. الشعب السوري يعيش في سجن كبير تُحصى فيه أنفاسه وترافق تحركاته وتتسجل اتصالاته، ويحاسب الحساب العسير على الذنب اليسيير، بل إنه ليؤخذ بالشبهة الباهنة فيغيب السنين الطوال خلف الشمس أو يصنف في أقبية التعذيب، كل ذلك على يد مجموعة من الأجهزة الأمنية السرية التي تحترف الترهيب والإذلال والقمع والتزويع، المخابرات العامة والمخابرات العسكرية وغيرها. وربما استغرب أيُّ دارس للتركيبة الأمنية العجائبية في سوريا من دسَّ أنف المخابرات العسكرية في المجتمع المدني أو المخابرات العامة في المجتمع العسكري، لكنْ تذكروا دائماً القاعدة التي كررتها من قبل مراراً: سوريا ليست دولة ذات أجهزة متخصصة، بل هي اتحاد كونفدرالي لدوليات أمنية (أجهزة أمنية) متشعبة التخصصات، وكل واحد من هذه الأجهزة يتحرك في طول البلاد وعرضها ويتنفس في إذلال وتعذيب عباد الله، لا فرق بين مدينهم وعسكريهم، فالكل في الاستعباد والهوان سواء. وإن فلا فرق بين المجتمع والجيش حتى في هذه، فكل الأجهزة الأمنية التعسفية المسلطة على رقاب المدنيين مسلطة على رقاب العسكريين، وإن يكن بشدة أكبر ويتركيز أشد بالتأكيد، وهذه هي الحقيقة الثالثة.

\* \* \*

#### الخلاصة: القوات المسلحة السورية جزء من المجتمع السوري أو قطعة منه، وهو يشتراك في الخصائص:

- (1) الجيش السوري يعني –بالجملة– من نفس العلل التي عانى منها المجتمع كله، من ظلم وقهر وفساد وسرقات، وسلط فتنة على سائر الفئات، واستيلاء عصابة من المتنفذين الكبار على كل الثروات، وهي العلل التي فجرت الثورة الشعبية في البلاد.

(2) لا يختلف الجيش عن المجتمع من حيث تركيبته السكانية والطائفية والحزبية على المستويات كلها، الدنيا والوسطى والعلياً. كما انتشرت روح الثورة والجرأة والتغيير في صفوف الأمة بكل أطيافها فليس بعيداً أن تنتشر في صفوف الجيش كذلك، (ولا يلزم لإثبات انتشار الروح الثورية بين العسكر أن نراها في شكل صريح من أشكال التعبير، فنحن نعلم أن الضبط العسكري يجعل التصريح بهذه الروح ضرباً من ضروب المستحيل).

(3) الضغط والكتب الذي يتعرض له الشعب من الأجهزة الأمنية السورية يشبه الضغط والكتب الذي يتعرض له الجيش منها، وإن كان - ربما - بدرجة أشد، لذلك نعرف بأن التمرد العسكري صعب جداً، لكن التمرد المدني لم يكن سهلاً كذلك. المجموعتان - المدنية والعسكرية - متشابهتان بالجملة، وقد قال أكثر الناس من قبل، العوام منهم والخبراء: إن الشعب السوري لا يمكن أن يثور على حكومته لأن حكمه بقبضة حديدية، ويقول أكثر الناس اليوم، العوام منهم والخبراء: إن الجيش السوري لا يمكن أن يثور، للأسباب نفسها ولأن قياداته كلها من العصابة الحاكمة. لكن الشعب السوري فاجأهم وثار، فما الذي يمنع الجيش من أن يفاجئهم ويثيرهم؟

بلى، سيثور الجيش السوري العظيم، على أن ثورته لن تكون ثورة الشعب، فهو لن يخرج إلى الشوارع في مسيرات ولن يهتف بسقوط النظام، وأيضاً لا يُتوقع أن يقوم بعض ضباطه بانقلاب، فهذا الأمر في حكم المستحيل لشدة الرقابة والضغط من أجهزة المخابرات والشرطة العسكرية، هذا أولاً، ثانياً: ليس هو المطلوب أصلاً في ثورة الشعب السوري. هذه الثورة السلمية الجماهيرية المباركة لم تصنع كل ما صنعته إلى اليوم من إنجازات وتقدم ما قدمته من تضحيات ليقطع عليها الطريق انقلاب عسكري يعيدها إلى أول الطريق! لا، كل ما هو مطلوب وما هو متوقع من جيشهنا السوري إنما هو نفسه ما قدمه الشهداء العظام من العسكريين الشهداء إلى اليوم، الذين تمردوا على أوامر قياداتهم ورفضوا قتل إخوانهم المتظاهرين المسلمين. قلت إنهم شهداء عظام لأنهم أشجعوا شجاعة وأكثروا بطولة على الإطلاق، فالمتظاهرون يخرجون منهم إلى الشوارع في أول اليوم مئة ألف فيعود إلى بيوتهم في آخره تسعه وتسعون ألفاً وتسعين ألفاً وتسعمئة وتسعون، ويُستشهد عشرة، ثم يعتقل مئة أو مئتان فيؤذون أياماً ثم يُطلقون. أما العسكريون فإذا تمرد منهم عشرة عشرة قُتل الفور، أو قُتل خمسة واعتنق خمسة فعُذبوا ثم أُحرقوا بالخمسة الأوائلين. فهؤلاء الشهداء - إذن - هم أشجع الفريقين وهو صفو شهداء الانتفاضة السورية الكبرى. ومع ذلك فهم كثيرون. أنا أتابع أعداد شهداء الجيش المتمردين باهتمام، وكما قلت لكم في الرسالة الماضية فإنني أحصل على إحصاءات دقيقة بأعدادهم من التلفزيون السوري! فيما أن المتظاهرين لا يقتلون أحداً، بل هم أصلاً لا يحملون سلاحاً، وبما أن العصابات المسلحة والسلفية والمندسة هراء في هراء، فالعسكريون لا يقتلهم إلا النظام، وهو لا يُقتلون إلا لأنهم يتمردون ويرفضون قتل المدنيين. أنا أكتب هذه الكلمات في اليوم التاسع والأربعين من أيام الانتفاضة، وقد اقترب عدد شهداء الانتفاضة من ألف - الأرقام المعلنة ومعها زيادة متوقعة بمقدار النصف على الأقل -، منهم مئة من العسكريين، أي أن شهيداً واحداً يسقط من الجيش غيلاً برصاص الأمن مقابل كل تسعه من المدنيين.

الإعلام السوري المضلّل يحاول التغطية على جريمته البشعة بخدعه مزدوجة، فهو يخفي جريمته من جهة ويستعملها لتشويه سمعة الانتفاضة السلمية من جهة أخرى. ربما نجح في خداع بعض المغفلين، لكن ما يهمنا - في هذه الدراسة تحديداً - هو الجيش. هل تنفذ الجريمة بلا شهود؟ قطعاً لا، بل يُعدم العسكري المتمرد أمام رفاقه في الميدان وعلى الفور.

#### والآن فكروا في المسألة من هذه الزاوية:

(أ) الجنود يساقون مرغمين إلى قتل مدنيين عزل لا يحملون قطعة سلاح واحدة ولا يملكون الدفاع عن أنفسهم، فهل سيكون القتل سهلاً عليهم؟

(ب) الجنود الذين يؤمرون بالقتل جاؤوا كلهم من مدن وقرى سورية، هذا من حمص وذاك من القامشلي والثالث من جاسم والرابع من اللاذقية... مدنهم ومناطقهم ثائرة وهم جزء منها، فهذا أخوه يشارك في المظاهرات والثاني سقط صديقه أو ابن

عمه فيها شهيداً، فكيف تَسلُم نفوسهم من الثورة؟ (ج) المجنَّد المزروع في حوران مثلاً يدرك أنه إنْ أمر بقتل ابن درعا اليوم فإن مجندًا من درعا ربما يُطلب منه أن يقتل أبناء بلده غداً، وسوف يفكَر بأنه لو تمرد ورفض فسوف ينجو هذا البريء هنا اليوم وربما يتمرد ويستنكر العسكري الآخر فينجو ابن بلده البريء غداً.

كل ما سبق من تحليلات وتوقعات وتصورات نظرية يوصلنا إلى نتيجة عملية مهمة جداً: التمرد والانشقاق أمراً متوقعاً جدأً مع تحريك الجيش لقمع الانتفاضة. التمرد سيكون حالات فردية، عصيان فرد أو عدة أفراد ينتهي بإعدامه أو بإعدامهم، أما الانشقاق فيقصد به تمرد جماعي على مستوى فصيل أو كتيبة، بل حتى على مستوى لواء. حتى الآن نستطيع تأكيد حالات تمرد كثيرة، ودليلنا عليها هو الإعدامات المتكررة في صفوف العسكريين، أما الانشقاقات فما يزال الحديث عنها في مرحلة الإشاعات، لكنني أؤكد لكم أنها إشاعات كثيرة وأنها تثير كثيراً من الضجة والاهتمام في وسائل الإعلام العالمية.

\*\*\*

**والآن سوف أجمع كل ما ورد في هذه الرسالة - من أولها إلى آخرها - في التوقعات التالية:**

- (1) سوف يستمر النظام -في معركته مع الشعب- بالاعتماد بشكل رئيسي على الأجهزة الأمنية -المخابرات-، وعلى المليشيات التي أطلقها من عقالها -الجيش الشعبي وعصابات الشبيحة-.
- (2) الجيش عنصر غير آمن بالنسبة للنظام، واللجوء إلى تحريك قطعات الجيش والزج بها في المعركة يدل على يأس النظام وعلى استنفاده أكثر خياراته.
- (3) ارتفاع وتيرة العنف والاعتماد على الجيش في مزيد من القتل سيزيد الضغط النفسي على جنود الجيش وضباطه ويساعد احتمالات التمرد.
- (4) حالات التمرد الفردي وعصيان الأوامر بقتل المدنيين ثابتة على المستوى الفردي، وإذا زاد معدلها خلال الأسابيع القادمة واقتربت من انشقاقات محتملة فلن يملك النظام أيَّ خيار سوى سحب الجيش.
- (5) تنفيذ عمليات قمعية مشتركة تجمع بين الجيش والأمن -المخابرات والمليشيا- خيار خطير للنظام، لأن زيادة قمع الأمن سيزيد احتقان عناصر الجيش، مما يمكن أن يتسبب في تمرد فردي أو جماعي ودفع الجيش عن الشعب واشتباكه مع الأمن.
- (6) إذا طُلب من الجيش تنفيذ عمليات حربية ضد المدن -تشتمل على اقتحام وقصف عشوائي بالمدافع والدبابات- فالأغلب أن يحدث عصيان وتمرد جماعي وانشقاق داخل الجيش.
- (7) إذا وصل النظام إلى نقطة حرجة فسوف يسحب الجيش النظامي ويعتمد على قوات النخبة ذات الولاء العالي، الفرقة الرابعة وبعض ألوية القوات الخاصة، ولكن لو قامت هذه القوات بجرائم كبيرة -على مستوى عمليات حربية- فقد تتحرك قطعات من الجيش في تمرد جماعي أو انشقاق عسكري للدفاع عن المدن، قطعات تقودها قيادات وسطى وليس قيادات عليا بالضرورة.
- (7) إذا فقد النظام كل خياراته وانهارت سيطرته على البلاد فسوف يركز قوته في العاصمة وينشر فرقة الحرس الجمهوري كآخر خط من خطوط الدفاع عن النظام، وقد تشهد دمشق -في هذه الحالة- المعركة الأخيرة أو الملحمـة الكبرى في انتفاضة التحرير، والله خير حافظاً.

\*\*\*

من كل ما ذُكر يبدو أن الجيش سيكون له دور و شأن مهم في حسم المعركة، ربما ليس بطريقة إيجابية كما حصل في مصر لأن سيطرة ضباط الطائفـة على القيادات العليا لا تسمح بشيء من ذلك، ولكن بطريقة سلبية على الأقل، حيث إن احتمال انفجاره وخروجه عن السيطرة سوف يدفع النظام إلى إعادة حساباته، وفي أسوأ الأحوال سيخرج الجيش من المعركة ويبقى

عقبة في وجه النظام أمام أي احتمال لعمل حربي إجرامي ضد الأمة.

المصدر: الزلزال السوري

المصادر: